

سمات المجتمع الورقلي من خلال أمثاله *Characteristics of Ouargula community through its proverbs*

أ.سي كبير أحمد التجاني
وأ.زغيد سفيان- جامعة ورقلة
(satv_99@yahoo.fr)

ملخص البحث

يتناول هذا البحث الكلام عن سمات المجتمع الورقلي من خلال أمثاله الشعبية، وذلك من خلال كلام موجز عن المثل والأمثال، ثمّ تلمّس مختلف قيم المجتمع الورقلي من خلال مختلف أمثاله، موزعة على أبرز سماته.

Abstract

This paper deals with the characteristics of Ouargula community through its popular proverbs, and through a summarized talk of the proverb and proverbs, and then touches the different values of the Ouargula community through its various proper proverbs, spread over its most prominent features.

Résumé

Les caractéristiques de la société ouarglinienne à travers ses propres proverbes

Cet article traite les spécificités de la société ouarglinienne à travers ses propres proverbes, par l'emploi d'une autre réformulation plus courte que le proverbe originel lui-même. Ensuite, on essaye de révéler les valeurs de ce groupe social à partir de ses propres proverbes, répartis selon les traits de cette société.

الأمثال متخيلات طرسية⁽¹⁾ ؟

إن الصورة التي ترتسم على الطرس هي ذاتها التي ترسم على أفق الحياة عامة، وما الأمثال الشعبية إلا صور لهاته الحياة، فهل يحق لنا أن نعتبر الأمثال طروس؟ إن صورة الطرس « تتطلب مساءلة: إنها تبلور في الواقع التوترات الحاصلة بين التباين والتماثل، النسيان والذاكرة، التي تصنع كل كتابة تناصية يحتوي الطرس على آثار، متفاوتة في درجة الوضوح لكتابات متعددة، وبعبارة أخرى إنّ الوحدة التي يمثلها الطرس على سطحه المرئي ما هي سوى الآخر؛ فالتنوّع يكون أحياناً متخفياً إلى درجة كبيرة. تطورت الكيمياء الحديثة، وسحت بالضبط بالعودة إلى هذا الأصل، الذي كان يبدو وكأنه اختفى تماماً، عن طريق حركة ارتداد مقدّمة بطريقة إيجابية دوماً؛ عند حكّ سطح اللفافة، يمكن العثور على مختلف طبقات النّص التي يغطيها. فالطّرس مهياً بامتياز إذن للقيام بالعملية الجنياولوجية *La demarche genealogique* فهو يحتفظ بالكتابات التي تبدو قد انمحت من أجل أن تترك مكاناً للكتابات الجديدة، فيخلف ذلك ترسبات مستمرة. فالوحدة الظاهرة للطرس تخفي إذن تبايناً أساسياً، من المهم إيجاده والحفاظ عليه»⁽²⁾.

إن المحتوي الحضاري والثقافي الذي تحفل به الأمثال قد يمنحها الأحقية بأن تكون نصوصاً طرسية متخيلة ومتجددة باستمرار، لأن الأمثال ترتسم في الذهن مثلما يرتسم الطرس الكيميائي، فالأمثال يمكنها أن تحتزل الأزمان والمسافات، فلا تعير للحدود الزمكانية أي اهتمام، فهي تحتزل خط الزمن في نقطة تراكم الذكريات، أين يتطابق مفهومي الزمنية والتزامنية، اللذين شدد دوسوسير في التمييز بينهما «فالدراسة التزامنية (السنكروني) والزمنية (الدياكروني) في دراسة اللغة، وشدد

على الدراسة التزامنية على حساب الدراسة الزمنية. كما طور نمايزاً آخر هو: التمايز بين العلاقات الأفقية والعلاقات العمودية في الإشارات: فالعنصر الأفقي / التتابعي في اللغة يؤثر في وضعية الإشارة: فمعنى الكلمة يحدده وضعها في الجملة، وعلاقتها بالوحدات القواعدية لتلك الجملة..»⁽³⁾ وباعتبار أن الأمثال رموز لغوية كان من المفروض أن تلتزم قوانين العلاقات العمودية، لكن الأمثال لا يتحدد معناها إلا بوضعها في المقام والسياق، وربط العلاقة بين دلالتها في السياق الماضي (الداخلي) والسياق الحاضر (الخارجي) ذلك لأنّ "السياق الخارجي في تضاد مع السياق الداخلي كتضاد المحيط النصي المباشر لمحيط غير نصي، وتكمن الصعوبة هاهنا في تمييز ما هو من قبيل النص عما هو ليس كذلك"⁽⁴⁾ ولكن هذه الصعوبة، تلغيها في مضرب الأمثال علاقة المناسبة.

إن صور الطرس ترتبط بالذاكرة والنسيان «فإذا كانت صورة الطرس تبلور التوترات الحاصلة بين التباين والتماثل، والنسيان والذاكرة، التي تصنع كلّ كتابة تناسية»⁽⁵⁾ فكذلك الشأن بالنسبة للأمثال، فهل بإمكاننا أن نعتبر الأمثال نصوصاً ضريحية لأنها تظهر دوماً في ارتباط بالذاكرة والنسيان، كصورة الطرس، «فإن كان التاريخ نفسه على صورة الطرس التي تمحو الأحداث فيها الأحداث، فتدويناته المثبتة على تدوينات أخرى تصنع صفحات أخرى من التاريخ»⁽⁶⁾.

إن الكم الهائل من المعلومات المرتسمة على الذاكرة البشرية تكشف عن طرس الذاكرة العظيم، والنص بما يحتويه وما يلمح إليه بمثابة طرس آخر - على رأي شاطوبريان *chateaubriand* - بل إن الطرس في رأي طوماس دوكينسي هو «موضوع تاريخي قبل أن يكون استعارة لنشاط الذاكرة والنسيان، ولا يمكن للنص أن يبرز من خلال الطرس إلا

بعد أن يفعل الزمن فيه فعله، فيكشف عن معنى الحاضر، يوفق الطرس بين استمرارية مصدر، وعاء المعنى، وتسجيل التاريخ الحامل للتنوع»⁽⁷⁾ وإذا كانت العنقاء من صنع الطرس، فالأمثال أكثر أسطورية وتنوعا من خرافة العنقاء، التي استعادت سلطتها رغم كل هاته القرون، فانبعثت من عزلتها عبر الدخان السرمدي في مراسيم جنازية، هي أسمى صورها صورة من صنع طرس الدماغ البشري -العربي- « وما هو الدماغ البشري، إن لم يكن طرساً، واسعاً وطبيعياً؟ دماغي هو طرس، وكذلك دماغك، أيها القارئ. طبقات لا تحصى من الأفكار، الصور، المشاعر وقعت متتابعة على دماغك، بلطف مثل الضوء»⁽⁸⁾ إذن فالأمثال إن لم تكن طروساً فهي جزء من طرس الدماغ البشري، الممتلئ بالصور المتراكمة بعضها فوق بعض.

حتى وإن لم تكن الأمثال الشعبية طروسا بالمعنى الحقيقي، فهي التي لا يستغني عنها العامة والساسة وغيرهم في خطابهم اليومي، بل ويستنجد بها الخطباء والبلغاء حين تستعصي عليهم الأفكار، وتجمح عن الانصياع للبلاغة، ولذلك فإن دراسة الأمثال تسمح بإعادة تشكيل معاني دلالية جديدة، لم تكن لتحملها الأمثال لولا السياق الجديد، ومنها نتبين أصالة الأمثال، وتفرداها في الحفاظ على سياقها الاجتماعي والتاريخي، وارتباطها الزمي والتزامي بالمقامين الحاضر والغائب.

ولنا في الأمثال اجتماع عجيب لعناصر لغوية لا نجدها في باقي الظواهر الأدبية -عدا اللغز- فهي -أي الأمثال- خير شاهد على الماضي السحيق، وأبرع متجدد في المقام الرفيق، تجتمع فيها المفاهيم القديمة والحديثة في ألفة، وتنصهر فيها أصناف الدلالات الكونية، الطبيعية، العرفية والعقلية في اصطلاح جديد يفرضه التداول المقامي، كما أنها

تحمّل نماذج سامية من التشبيه والاستعارة والجاز، وهي صور بيانية تعطي للأمثال سلطانها والعقلي والعرفي واللساني، فهي تحمّل ذاكرة الشعب وذوقه، بل تاريخه أيضاً.

والأمثال بوصفها رموز يمكننا أن نتبين تحولاتها في الخطاب اليومي بين المتخاطبين من جهة، وعلاقتها بالمقام المرجعي لها، وطريقة تلفظها في المقام المرافق، وبعبارة أخرى يمكننا أن نفهم دلالة الأمثال من حيث علاقتها الانعكاسية - خارج سياق المقام - وعلاقتها التفاعلية التداولية من خلال التلفظ بها في سياق معين.

المثل الشعبي + تلفظ = صورة رمزية.

صورة رمزية + المقام = علامة.

علامة + السياق = نظام.

نظام + العرف = عقد اجتماعي.

عقد اجتماعي ⇨ تأويل جديد للمثل الشعبي.

بعض سمات المجتمع الورقلي من خلال أمثاله :

إن نظرية الأدب الشعبي ترتكز على مفاهيم عدة، أهمها أن تجليات الشخصية بأبعادها الفردية والاجتماعية تنكشف للدارس إذا أتيقن الربط بين علاقة الأدب الشعبي بمستعمليه فضلاً على منتجه، فليس كل أدب يستعمل في منطقة ما هو بالضرورة نتاج حتمي لها، ولكن هو تفاعل ناتج بين الأفراد المستعملين والبيئة المنتمين إليها والنصوص الأدبية الشعبية الإنسانية المهاجرة من منطقة إلى أخرى، لتداخل الموم الشعبية، خاصة في الجانب الاجتماعي بكل أحزانه ومآسيه، وباعتبار «أن الأدب الشعبي موجود قبل الأدب الرسمي»⁽⁹⁾ فهو أكثر قدرة على حمل سمات الشخصية الحقيقية للفرد والمجتمع من خلاله، والأمثال الشعبية من

أهمّ الأدوات التي يستعين بها البحث الاجتماعي والانثروبولوجي في الكشف عن هوية المجتمع المدروس، وقد تعددت وسائل التعبير، وهذا من متطلبات النفس، وتتخذ صوراً تشكلها طبيعة الحياة التي يعيشها الإنسان في مجتمع ما، وأقوى هذه الوسائل علاقة بكيونة الإنسان الاجتماعية هي اللغة « والنفس البشرية مضطربة ومتغيرة حسب الأحوال التي تعترّي الأفراد، وكذلك الشأن بالنسبة للمجتمعات، تتأثر بكل ما يعترّيها من أزمات وحروب... وغيرها، والشخصية كما عالجها علماء النفس هي نموذج Pattern حياة الفرد، أو ذلك المجموع الكلي لاتجاهات السلوك التي تعطي معنى للفرد، وتميزه عن غيره الأعضاء الآخرين في المجتمع». (10)

وانطلاقاً من مبدأ علاقة الفرد بالمجتمع يمكن التمييز بين فرعين اثنين، هما: « علم نفس الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، ويحمل الأول اسماً آخر هو علم النفس الفارقي. وموضوعه هو الخصائص النفسية عند الفرد، كالطبع والمزاج وغط السلوك، والنشاط العصبي العالي، والدوافع والقدرات وغيرها، بالإضافة إلى العوامل المؤثرة فيها» (11).

وتبرز الظواهر النفسية التي تنشأ خلال تفاعل الإنسان مع الآخرين، سواء أكان الآخر فرداً أم جماعة (الأسرة، الجماعة المنظمة، الجماعة غير المنظمة...) في الابداعات الفنية والأدبية خاصة، ومنها الأمثال الشعبية، كصورة حية للممارسات الشعبية اليومية، ويتصدى علم النفس الاجتماعي والانثروبولوجيا، فيتوليان دراسة أهم السمات البارزة في المجتمع والقيم والمعتقدات والتقاليد الاجتماعية، وأثر ذلك كله في سلوك الفرد وفي أقواله أيضاً.

وما ذهب إليه أحمد رشدي صالح من أن « المثل هو هذا الأسلوب البلاغي القصير الرائع بالرواية الشفاهية، المبين لقواعد الذوق أو السلوك أو الرأي الشعبي، ولا ضرورة لأن تكون عبارة تامة التراكيب، بحيث يمكن أن يطوى في رحابه التشبيهات والاستعارات والكنيات التقليدية»⁽¹²⁾.

لم يختلف الدارسون حول صدق الأدب الشعبي، ومدى قدرته على التعبير والتصوير للحياة الاجتماعية في مختلف أبعادها الفردية والجماعية، ولكنهم -يقول أحمد رشدي صالح- قد انقسموا إلى ثلاث اتجاهات هي:

وهذا ما نبتغيه في هاته الدراسة، وهو المزاوجة بين الاتجاهين الثاني والثالث؛ لربط المضمون بالبيئة الصحراوية والشخصية الورقلية.

الاتجاه الأول: اكتفى بالإشارة إلى أن الأدب الشعبي يصور الشخصية، وتُمنى لو أن أولاهها عنايته ثم عدل عنها، كما فعل أحمد بدوي في دراسته عن الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام...

الاتجاه الثاني: وقد ركز على الدراسة اللغوية فاستعان بتحليل لغة الأمثال للكشف عن بيئتها اللغوية، بحيث أمكن القول أن هذا المثل يرجع إلى بيئة بعينها استناداً إلى ما جاء فيه من ألفاظ حُرِفَتْ في تلك البيئة، وقد أشار إلى ذلك الدكتور الشلقاني في دراسته للرواية اللغة.

الاتجاه الثالث: واهتم بدراسة المثل من جانب المضمون، ودلالته على الحياة الاجتماعية بالمدلول الواسع لهذه الحياة، ومنها محاولة أحمد شعلان في كتابه (الشعب المصري في أمثاله العامية)، وأحمد تيمور في كتابه (الكنيات العامية).

سمات المجتمع الورقلي وارتباطه البيئي الصحراوي في سرد أمثاله:

الجود وكرم الضيافة:

إن الجود والكرم صفة إنسانية يتحلى بها البشر في كل مكان وزمان، ولكن نريد في هذه الدراسة أن نبين الارتباط الحاصل - في منطقة الدراسة - بين العناصر الطبيعية البيئية وهاته السمة الإنسانية الأخلاقية، فنجد ذلك متجلي في ربط الجود بالتمر والنخل، وهذا مؤشر على أصالة هاته السمة الخلقية (الجود والكرم) بأهل المنطقة، ولنلاحظ هذا المثل: الجودُ جود ولو يثمرَ.

إن انطباع صفة الكرم بأهل الصحراء لها ارتباط وطيد بطريقة عيشهم، ولا زالت هاته الخصلة عنوان الإنسان الصحراوي عامة، والورقلي خاصة، فهم يجذون أن يتكرم الإنسان دائماً، ولو بأقل ما يملك، وعبروا عن ذلك بالتمرة، وهي أمر متوفر للجميع، وبالتالي يسهل الجود عليهم جميعاً، وامتداداً لذلك فإن الجود سمة لصيقة بأهل المنطقة أجمعين، أو لنقل بأن هذا المثل دعوة صريحة للامتثال بالجود من طرف الجميع، والتمر عنوان من عناوين البيئة الصحراوية، وهذا ما يبرر ارتباط هذا المثل بالمنطقة بيئياً وروحياً وفكرياً.

كما نجد لفظ التمر يتكرر مراراً في الأمثال الورقلية ومنه:

قلبي كي التمرة وقلب أما كي الجمرة.

قلبي كي الجمرة وقلبو كي التمرة.

وهذا التعبير بدلالة التمر وحلاوته على حرقة القلب، ومقارنة الآخر بمن يقول المثل لدليل واضح على التأثير البيئي لتعلق الناس بهذا المعلم البيئي والحضاري، واحترامهم له، وارتكازهم على التدليل على أحاسيسهم وأفكارهم به.

الْتَمَرُ وَلَحْلَبُ مَا يْتَمَدُّوْا لِالْحَبِيبِ.

كما نجدهم في المثل يبينون مدى تقديرهم له واحترامهم لمقام من يقدم له هذا المنتج فلا تعدّ قيمة التمر بالنسبة للوراقلة في قيمته الغذائية فحسب، بل تتعداه إلى قيمة أكبر في نفوسهم، تدل على ارتباط روحي ونفسي وتراثي حضاري بينهم وبين أصالة التمر، فهو الغذاء والدواء والحبيب؛ أي لا يُستغنى عنه، وصاحب المكانة الرفيعة في نفوس الجميع، حتى أنهم أعز ما يهدونه إلى أحبائهم هو عرجون تمر رفيع.

الْتَمَرُ مَا يْتَمَلَّحُ، وَالسُّوفِي مَا يْتَكَلَّحُ.

وهنا يركزون على رفعة مكانة التمر، فلا يمكن للملح أن يتمكن منه، ويقابلونه بالسوفي - سكان واد سوف - وعلى الرغم من أن وجه الشبه بينهما يكاد يكون منعدما، إلا أن الذاكرة الشعبية تأبى إلا أن تدخل التمر في كل تعبيراتها المثلية، فلم وجود التمر في هذا المثل؛ :
قَالُوا الْبَلُوطُ أَحْلَى مِنَ التَّمَرِ، قَالُوا لَخَيْرُ يَجِيبُوهُ الثَّوَالِي.

وما علاقته بالملح؟ وما الداعي لإحضاره هنا ؟ فليست هناك إجابة مقنعة، إلا الارتباط الثقافي، والتقسيم التقابلي.

وكذلك في هذا المثل نجد حفاوة كبيرة بالتمر، على حساب البلوط، ولكن في الحقيقة صيغة المثل تدعوا إلى النظر في صيغة التساؤل التي يعقبها تقرير الحقيقة، والانتصار لحلاوة التمر هي في العمق انتصار لحلاوة أهل الصحراء وطبيبتهم، أكثر من أصحاب البلوط.

هَذَا يَلَحُّ مَا طَابَ مَدْلُوحٌ⁽¹³⁾.

وفي هذا المثل يستعينون بخصائص التمر، وأوقات نضجه للتعبير عن أحوال الناس، كما في هذا المثل، الذي يضرب للطفل الصغير الذي يبدي استعداداً للشر.

المبالغة في إكرام الضيف:

ومن الأمثال التي تتغنى بوجود الضيف وتعظيمه وتوقيره وعدم الضجر منه حتى وإن أطل المكوث كما في هذا المثل: **الضَيْفُ ضَيْفٌ يَلُوكَانُ يُقْعَدُ شَتَا وَصَيْفٌ**، ويردف هذا المثل وهو على لسان الضيف: **الضَيْفُ فِي يَدِ الْمُضَيْفِ**، ويقال هذا المثل حين تحيير الضيف في مكان جلوسه، فلا بد أن يخضع لإرادة المضيف لأنه أدري بجرمة بيته وأهله.

رحابة الصدر:

رحابة الصدر من الكرم، ولكننا أفردناها بالذكر لأن المثل الموالي (**الضَيْقُ فِي الْقُلُوبِ**)، متداول بكثرة في الأوساط الجزائرية عموماً، وهو بين انشراح الصدر بالمحبوب -الضيف- الوافد إلى البيت، ولكن هذا المثل (**اللي جآ وثعناك نحلو لحمه من عضاك، حتى لوكان غريم باباك**)، فيه مبالغة كبيرة، تنم عن مدى رحابة صدور متداوليه في المنطقة، وهذا يبين قيمة الضيف عند أهل المنطقة وحرمته، فهو معزز وإن كان عدواً، فرفعة الضيف في النفوس تدوس على كل الأحقاد والأدران العدائية، فالضيف بركة وتزكية للنفس ومجلبة للخيرات، ومن هنا استقى قيمته الرفيعة.

وهذا الارتباط بين الأمثال وعناصر الطبيعة الصحراوية يعد أهم شاهد على أصالة هاته الأمثال في المنطقة ثقافياً وحضارياً، وليس التمر وحده المرتبط بأمثال المنطقة، فلدينا المثل الشائع، ذي السلطة الاجتماعية الكبيرة، حيث أوردناه في قصيد الشاعر الشعبي الأمين **سويقات** الذي أجمل فكرته في هذا المثل: **كي كان حي مشتاق لتمرّة وكَي مات علقوألو عرّحون**؛ لأنه رأى بأن المجتمع الورقلي أكثر ارتباطاً بهذا المثل من التدليل الفكري الذي قد لا يفهمه الكثير، وكان الشاعر

ذكياً فاستخدام المثل ليس لمادته اللغوية والفكرية فحسب، بل لهيمنتها الاجتماعية، وسلطته وسطوته الحضارية، وقبول الناس له. وفي هاته الأمثال يبدو المجتمع أيضاً في استعمال أهل المنطقة لنوع آخر من عناصر البيئة الصحراوية، وهو أكثر امتزاجاً مع الناس، وعنوان من عناوين الصحراء، حتى إنه يكنى بسفينة الصحراء، إنه الجمل، فهو ملازم لحديث الناس في المنطقة، لقربه الوجداني منهم، فهم يتحسسونه، ويعبرون عن أحاسيسهم وكل ما يدور في حياتهم بحصاله وعاداته، ومعرفتهم له ولأحواله، وهاته جملة من الأمثال التي يستعمل فيها أهل المنطقة الجمل والناقة.

فالجمل من أبر العناصر الدالة على الصحراء، وارتباط أهل المنطقة به يجمع بين حبهم له، واستفادتهم من وبره ولحمه، كما أنهم يرون فيه عنوان الأصالة والارتباط بالماضي والتراث القديم، وقد جاءت الكثير من الأمثال الشعبية، ومجد حضوره في الشعر الشعبي وفي الأغاز والحكايات الشعبية، وحتى في النكت والكلام اليومي العادي، فالناس في المنطقة الصحراوية لا يكفون الحديث عن الجمل لولعهم الشديد به، ففي هذا المثل: **الرَّاحِلَةُ شَرِينَتَاهَا وَالْبُعِيرُ عَلَى سَيْدِي.**

يستحضر **البُعِيرُ** كوسيلة نقل إلى البقاع المقدسة، وهو يرمز للمقدرة المالية والجسدية للفرد للذهاب إلى الحج، حتى أنهم يقولون لمن يريد أن يضيق على نفسه للذهاب إلى هذا المثل: **الليّ مَا عَدَدُو حِمَالٍ وَاشْ أَدَاهَ لِلْحَجِّ.**

كما يربطون الناقة بالمرأة لتوضيح المكانة والقرب من النفس، وكذلك القيمة المالية لها، واستفادة المرأة من ذلك، فهذا المثل يبين أن التعامل بين النساء في الفائدة والربح، أما بين الرجال فتكون الخسارة

لكثرة المتاجرة؛ بَيْنَ لَمِرَةٍ وَلَمِرَةٍ مَيَاتٍ نَاقَةَ حَمْرَةٍ، وَبَيْنَ الرَّاجِلِ
وَالرَّاجِلِ مَيَاتٍ تَاجِرٌ.

الحفاظة على الدين:

للناس في المنطقة على تعدد مشاربهم واتجاهاتهم احترام كبير
للدين الإسلامي، فهو الملجأ الأخير إلى كل من تنفيه به السبل، ولذلك
نجدهم يعبرون بهذا المثل: إِذَا تَخَلَّطْتَ لَدَيَّانِ حَافِظٌ عَلَى دِينِكَ.
كما يدرجون هذا المثل: إِذَا حَضَرَ الْمَا يَبْطُلُ التَّيْمُمُ. من باب
السخرية في كثير من المواضع، ولكنه يدل على ارتباطهم الوطيد بالدين
الإسلامي الحنيف.

الأنفة والعفة وعزة النفس (الرُّجْلَة):

كذلك ترتبط النخوة والعزة والشرف في المجتمع الورقلي بالجمال،
فيعبرون عن ذلك بمفارقة شبيهة بمثل، حلب الحمار، وهي:
اللي ما عندو قلب يعزوه فيه، واللي ما عندو نَاقَةَ يَحْلِبُ
مَهْرِيه.

وهو يقارب المثل المعروف في الجزائر عامة: اللَّي بِلَا قَلْبٍ يَمُوتُ
سَمِينٌ، ولكنه يحمل سمة من سمات الصحراء، وهي الحمل، وهذا الأخير
أيضاً يعد من رموز النخوة والعزة والأنفة عند العربي والصحراوي
عموماً.

الاعتقادات وصلاح البلاد:

ونجدهم أيضاً يرتبطون في معيشتهم وحياتهم بالأولياء الصالحين،
والولي الصالح الذي يدين له الناس بالولاء في ورقلة، هو سيدي بلخير
الشطي⁽¹⁴⁾، لذا فهم يعتقدون فيه الصلاح، ويحافون من سطوته

الروحية، ويعبرون على ذلك بقولهم (يدقك) كما في هذا المثل : اللي يدير الخير يدقو سيدي بلخير.

وكذلك التنازع بالألقاب والعشائر كما في هذا المثل؛

أطويل وجايح من ولاد السايح، قصير ومتحوف من ولاد سوف.
ومما عُرِفَ عن أهل المنطقة أكلهم للجراد، وبالتالي نجد المثل التالي على الجراد، وتغنيهم به، ووصفهم له بأنه من أطيب الأطعمة، وهذا دليل على أصالة هذا المثل في المنطقة.

أكل الجراد:

لقد عرف أهل ورقلة بأكلهم للجراد، وبلغ ولوعهم بذلك إلى حد توظيفهم له في أمثالهم المستحدثة، مثل : الجرادة¹⁵ طيبة وفلقها هُرْ. والناس يُعلِّلون ذلك بأن الجراد يأكل كل شيء، فهم يعتقدون بأنه يشفي من الأمراض.

ويربطون أكل الجراد بالصيام في هذا المثل: صام عام وفطر على جرادة.

وهذا يبين أنهم يعرفون بأن الجراد ليست له قيمة غذائية، ولكنهم يؤكدون على قيمته الشفائية والعلاجية.

ونجد هذا المثل الدال على تواجد العقارب في المنطقة والناس لا يأمنون بها، ولكنهم يستعملون ذلك للتدليل على أن البحث في الأماكن التي لا يجب البحث فيها أو الكلام عن أشياء لا يحسن التكلم فيها بمثابة البحث عن الأذية، والأذية هنا تكمن في تعبيرهم (العقارب)، فهم يستحضرون صورة من صور الحياة الاجتماعية في البيئة الصحراوية لتوضيح المعنى المراد، أو بالأصح للتلويح إليه، وفي هذا المثل: تقلب لحجر يخرج لعقارب؛ الذي يشير إلى وجود العقارب في المنطقة، وهي الأخرى رمز من رموز المنطقة، على ما فيها من الخطورة.

وهكذا الأمر في باقي الأمثال، يستحضرون عناصر البيئة الصحراوية للتلويح إلى مفاهيم فكرية مستقرة في أذهانهم.

احترام العمل والعامل اليدوي:

للمجتمع الورقلي والصحراوي -رغم التمدن- ارتباط وطيد بالتراث، ويتجلى ذلك من خلال استعمال الأمثال الشعبية للكثير من الأواني والآلات القديمة، والحيوانات الموجودة في البيئة، ومنها هذا المثل: **عَلَّمَ وَلَدَكَ الْفَالَةَ⁽¹⁶⁾ وَبَتَّتَكَ الْخُلَّالَةَ**. فكل من **الْفَالَةَ** و**الْخُلَّالَةَ** من الآلات التي تستعمل في العمل اليدوي، وإذا كانت الأولى خاصة بالرجال فالثانية خاصة بالنساء، وهذا يدل على أن الدعوة إلى العمل في هذا المثل تشمل الجنسين معاً. وهذا المثل يدعم ذلك أيضاً:

الطُعْمَةُ رَقِيقَةٌ، وَزَادُوهَا الْخَبَاطَةُ أَوْ الْخُلَّالَةَ.

كما نجد المثل الموالي: **الطَّلْبَةُ غَلْبَةٌ حَتَّى لَوْ كَانَ مِیْهَةٌ مِّنْ الْقَرْبَةِ**، يذم التسول، ويربطه بلزمة من لوازم الصحراء وهي: **القَرْبَةُ**، وهذا دليل آخر على أصالة هذا المثل، وانتسابه إلى أهل الصحراء عموماً، وبالمقابل فإن الناس يرفضون أن يرد السائل فيقولون: **اللي يقش⁽¹⁷⁾ الما يموت أعمى**، وهنا تتداخل قيمتي الجود والكرم مع الدعوة إلى العمل كصفتين مميزتين للمجتمع الصحراوي عموماً.

ويرتبط العمل دائماً بتأمين الحاجيات، وخاصة المأكل والملبس، لذا نجد هذا المثل **الجُوعُ يَعْلَمُ السَّقَاطَةَ⁽¹⁸⁾ وَالْعَرَى يَعْلَمُ لَخَبَاطَةَ**، الذي يدعم الحث على العمل كي يتخلص المرء من الفاقة، كما أن المثل يوصي إلى أن الحاجة هي الدافع الأساسي إلى العمل، ويضرب المثل للذي يرفض العمل لتوضيح الرؤيا التي سوف يؤول إليها إن بقي حاله كما هو عليه.

كُلَّ خَنْفُوسٍ عِنْدَ أُمُو غَزَالٍ: لقد قيل الكثير عن هذا المثل ونسبه البعض⁽¹⁹⁾ ولكن الواضح أن هذا المثل لا يحمل دلالات كافية للبيئة التي ينتمي إليها، فإذا قلنا بأن الغزال أحد حيوانات الصحراء، وبالتالي فهو مثل مرتبط بالصحراء وأهل الصحراء لا تكون الحجة دامغة، لأن الغزال رمز الجمال، ويستعمله أهل الصحراء كما يستعمله باقي الناس في وصف الجمال الأخاذ، لكن الملفت للانتباه في هذا المثل هو أن كل من (الخنفوس والقرد) هناك إجماع على قبحهما وقذارتهما، وبالمقابل هناك إجماع على أن الغزال رمز من رموز الجمال.

ولكن هذا المثل: اللي حاب للغزال يبكرّلو. الذي وظف فيه الغزال لا يمكن أن يكون لبيئة غير صحراوية؛ لأنه يبين سمة من سمات أهل الصحراء، وهي صيد الغزال، على أنه متعة وذكاء ورفاهية، كما يوحي بالتجربة التي يشار إليها، وهي التبكير لاصطياد كل ما هو جميل ورائع في هذه الحياة.

وهذه جملة من الأمثال الشعبية التي تحمل في طياتها وألفاظها المسطرة دلالة واضحة على ارتباطها بالبيئة الصحراوية الورقلية، وهي أيضاً تحمل المهوم اليومية للناس وتعاملاتهم في أبسط صورها، وفي أعماق مضامينها النفسية والاجتماعية.

البعير ما يشوفش حدبثو ويشوف حدبة خوه.
تاي نلا نغانغ كي لغروسة بلا تصناع.
الترقاس يصطاد بلثعنصيص.
الرأس اللي ما يدورش كابوية خير مئو.
الصالح سيد لحكام والشرع بشاشيثو.
في الشتا يهيج الحمل والغراب.

قَالَ الْبِتْدَرَاقُ: لَوْ كَانَ مَا عَيُونُ النَّاسِ أُنُوضُ وَرَاءَ كِرَاعِ
الْخَمَاسِ.

قَالَتْ الدَّاجَاةُ : دَوْرَةٌ فِي الْحَارَةِ خَيْرٌ مِّنْ مَّيَاتٍ قِرَارَةٍ.

قَالَتْ الْكُرْشَةُ : لَوْ تَعَرَّفُوا مَا فِي تَاكُلُونِي نَيْتَةٍ.

كِي لَحْمِ الْبُعَيْرِ الْكَثْرَةُ وَالرَّبَا.

لَوْ كَانَ أَنْهَأَتْهُ أُمُو عَلَى الْبَيْضَةِ مَا يَجِيبُ الْفَلَّوْسُ.

لَوْلَ تَائِيَّ وَالثَّانِي نَعْنَاغُ وَالثَّلَاثُ مَاءٌ وَسُكْرُ.

الَّتِي قَاتَكَ بِكَبُرٍ لِّخَبَامٍ فُوْثُو بِطُولِ الْعَمْدِ.

هَذِي حَالَةٌ لِّقَرَابِ اللَّيِّ بَقَى حَاسِي أَشْرَبَ مِّنْ مَا.

وَإِشْ يَجِيبُ الْبَخْلُ الْعَالِي لِلدَّوْمِ الزَّحَافِ.

خلاصة :

لقد حاولت في هذا الفصل أن أحلل الأمثال الشعبية، وفق متطلبات المنهج التداولي، والمثل الشعبي يجمع في طياته العديد من المفاهيم التي حاولت استنطاقها من خلال البحث في طريقة التلفظ كمرتكز أساسي من مرتكزات التحليل التداولي، ناهيك عن المجادلة والمحاكاة، والمثل الشعبي عبارة موجزة وجاهرة، ترتسم في ذهن كنوع من أنواع الطروس، يرمي بها القائل في خطابه بكل ما تحمله من إبهام وغموض وتضمن، ليفجر المفارقة التي هي بمثابة روح المثل الشعبي، وبها تتجدد الدلالة الرمزية له، في المقامات المختلفة التي يضرب فيها.

كما حاولت استنتاج بعض السمات الأساسية للشخصية الصحراوية لأهل منطقة ورقلة، وربط ذلك بالبيئة الصحراوية، أو بعبارة أدق حاولت الكشف عن تجليات الشخصية الورقلية، وارتباطها بالمظاهر البيئية الصحراوية، من خلال توظيف هاته الأخيرة في مضامين الأمثال الشعبية.

الموامش والمراجع المتمعمة

- (1) الطرس (PALIMPESTE): مصطلح ابتءعه جىرار جىنىء، ىراء منه أن النص طرس ىسمآ بالكتابة على الكتابة، ولكن بطرىقة لا ؤخفى تمامأ النص الأول الذى ىبقى مرئىأ ومقروأأ من ؤلال النص الجءىء، وهو مصطلح ىتلاقى مع مصطلح التناص، والنص الغائب والبنى السطحية، والبنى العميقة، إلى ؤء ما فى النقد المعاصر فى أوروبا. الءكءور ؤلىل الموسى، قراءاء فى لشعر العربى الءءىء والمعاصر، منشوراء اءاء الكتاب العرب من الملحق.
- (2) نءالى بىىقى- غروس، مءآل إلى التناص، ص106.
- (3) مءمء عزام، ؤلىل الخطاب الءبى على ضوء المناآى النقدىة الءءائىة، منشوراء اءاء الكتاب العرب، ؤمشق-2003، ص20.
- (4) ؤومىنىك مانقونو، المصطلآاء المفاءىء لءآلىل الخطاب، ص32. هناآ ؤارسون لا ىقصرئون مفهوم النص على الوءءاء اللغوىة، بل ىءرجون فىه العناصر الئى هى من قبىل الحركة الئى ؤصاحبها الحركات، الاماءاء،...
- (5) نءالى بىىقى- غروس، مءآل إلى التناص، ص 107.
- (6) المرجع نفسه، ص 107.
- (7) المرجع نفسه، ص135.
- (8) المرجع السابق، ص135.
- (9) أءمء سىء مءمء، مقال: البآء عن الشآصىة من ؤلال الأمءال الشعبىة، الثقافة، مجلة ؤصءر عن وزارة الاعلام والثقافة بالآزائر، السنة الءاءىة عشر، الءء 65، 1981.
- (10) المرجع نفسه.
- (11) ؤ. بءر الءىن عاموء، علم النفس فى القرن العشرىن، من منشوراء اءاء الكتاب العرب ؤمشق-2001، ص24.
- (12) أءمء سىء مءمء، مقال: البآء عن الشآصىة من ؤلال الأمءال الشعبىة، مجلة الثقافة، الءء 65، 1981.
- (13) ؤارآة بمعنى ؤأرجآ وهو مءءلى من النآلة.
- (14) نسبة إلى قرىة الشط الئى ىءواآء بها ضرىآه.
- (15) لءء عرف أهل المنطقة - وأنا منهم - بأكلهم للآراء ؤءى أن قائلأ قال بأن الآراء أوصآ ىهاب المنطقة، وىطىر بعىءأ ؤىنما ىرى لافءة الءآاب (مءىنة ورقلة ؤرآب بكم) من باب الءكم والسآرىة والمزاح.

(16) ويقال لها أيضاً المسحة، وهي الآلة البسيطة التي تحرث بها الأرض يدوياً، وهي كالمعول رمز للعمل والبناء والتشييد، كما أنها رمز للرجولة والقدرة العضلية الهائلة، لذا جاء النصح في المثل الشعبي بتعليمها للابن، لأنهم يرون فيها الفتوة والقوة والرجولة وضمان الكسب الشريف والرزق، وكذلك الشأن بالنسبة للخلالة وهي رمز لعمل المرأة وإتقانها لفنون الخياطة والنسيج، وهي أيضاً رمز لضمان الكسب الشريف بالنسبة لها.

(17) دارجة بمعنى يمتنع عن إعطاء، ومن يفصل ذلك يصف بـ : القشاش على وزن المبالغة فعال.

(18) السقاطة دارجة تعني الطمع، أو يمكن أن يحمل المعنى على أن الجوع يعلم الإنسان كيف يسقط من قيمته، فيتذلل للناس من أجل سد رمقه.

(19) نسبت الباحثة منى برهومي هذا المثل فقالت بأنه جزائري، وإذا بدلت كلمة خنفوس بالقرد فهو تونسي، ولا نرى أن الدليل الذي قدمته مقنعاً، إذ تقول بأن القرد له ارتباط بالبيئة، والمجتمع التونسي والخنفوس له علاقة بالمجتمع الجزائري، والواضح أن هذا التبرير غير متماسك، ولا يحمل دعامة حجاجية مقنعة لأن كلا من الخنفوس والقرد متواجدين وبكثرة في المجتمعين الجزائري والتونسي.